

نظرات مختلفة



تتقاطر على مسمعيّ نقرات حادة، وشوشة تأتي كرداذ فاطر على النعاس الذي يحتل مقلتي المسترخية. أنصتُ إلى أحذية ذات وقع سريع تططق الأرضية. خطوات قلقة فارة من تآكل الوقت. سرير فاخر أرقد عليه، سحبني إلى عالم غارق من الخمول. يااااه، لم أعتد هذا الترف الباذخ من قبل ولكن سأحاول التآلف مع المعطيات هنا.. يبدو أنّ الجميع غادر إلى وجهته الآن، انسحبوا تاركين لي فراغاً هائلاً يسكنني بحجم البيت الذي أسكنه، وها أنذا كديك الصباح بنشاطه، صاح إثر خطوات تنسحب وأبواب تُغلق مشرعة خلفها فسحة للفراغ باقٍ دونهم، يتنسم الوحدة وأنا أشاطره تلك الأنسام. أصبحتُ كائناً فريداً أشغلُ مساحةً ضخمة، يمكنني أن أتقوّل داخل كل الأشكال المتوافرة هنا، وكما يتسنى لي أن أسيح على أي مساحة أنساب عليها وذلك حسب مزاجي الحر في كل بقعةٍ متاحة. يمكنني احتلال مساحات شاسعة، وشغلها منفرداً من دون شريك إلا ذاك الفراغ يشدو ألحان الوحدة ويسكبها في داخلي طازجة.. يا للرهبة. يغدو الفراغ مرعباً عندما لا يبقى لك عمل سوى أن تشغله بكيانك، يجب أن تخفف وطأته عليه وعلىك بحضور مجد يليق بفراغه ويلائم وجودك البهي. كيف أبدأ يومي؟ اممم، حسناً، سأستيقظ وأشغل المطبخ أو"لاً، سأحضر "نسكافيه" منعشاً لأطرد ما تبقى من غفوة تزحف على أجفاني الذابلة.. ولجتُ إلى المطبخ، بدا لي ضخماً فسيحاً، شغلتُ مساحة ضئيلة، لم أقوِ التأثير على فراغه، بل أحسستُ بحيزه الذي ابتلعني من دون تردد. هرعتُ إلى الصالة شارداً من بلعوم الوحدة، اندهشت من خدر يسري فيها ويبعث سكرته من جدران الفراغ. يضمّني

الفراغ أينما أخط أو أقع. يا للعجب. هناك الفراغ يعمّر المكان بأذياله المتشعبة، وها هو يقتفي أثري إلى هنا أيضاً بأذرعه الأخطبوطية. أرضية الصالة تفوح برائحة النظافة العارمة، وسائل الـ"ديتول" الذي لعق كل ذرة وساخة كان لها أن توجد طبيعياً. قل من يجلس هنا، أستغربُ من كبر حجم المنزل وقلة سكانه. يا ترى، لماذا يقتنون بيتاً ليس لهم القدرة على إشغاله؟ لم آلف بيت خالتي كبيتنا المكتظ ذاك الذي في القرية، أستأنس الزحام وضجة الأنام، أحسُ بالحضور والحياة معاً وأنا مبعثر بين الكم الكبير من أفراد عائلتي الممتدة. بيتنا صغير، يؤوي شرذمة من أشكال وطباع مختلفة لبشر منفردين تختلط أنفاسهم فتختنق بهم الأمكنة، ومع ذلك، أستلذ ذاك الضيق بسعة قلوبهم المنشرة، بينما هنا كل شيء معد للملل ومهيأ للصجر. فأصحاب البيت يدخلونه للنوم فقط من دون أن يتبادلوا الود والأحاديث الدافئة. وازدحام الغرف بالأثاث، لا يشي إلا على أنه ديكور للعرض، بينما الاكسسوارات الموزعة لا تزيد على كونها تكميلية للرفاهية ليس أكثر. وأغلب الأحيان البيت فارغ من سكانه، فخالتي وزوجها يغادران للعمل باكراً ويعودان بعد الساعة الرابعة، بينما يرجع ابن خالتي وأخته في الساعة الثانية تقريباً. أما أنا، فأجلس بمفردي أحتمي الكسل وأتشرّب وطأة الدقائق التي تمر بتثاقل لم أعهد له مثيلاً. وها أنا اليوم مفلسٌ تماماً من أي التزام لي، وخالي من أي مقابلات عمل، تلك التي سأجريها من أجل الالتحاق بالوظيفة في هذه المدينة المرقطة بالوحشة. إذا حدث ونلتُ وظيفة، كيف سأتعاشي بكل هذا الفراغ الموحد، لا أدري. نظرتُ إلى ما يمكنه أن يثير فضولي لأفعله أو أتسلى به، فتحتُ التلفاز. لا يبدو أن أحداً ما يستعمله، فقد خلا من القنوات المبرمجة. جلستُ على الـ"صوفا" باسترخاء، سحبتُ قدمي أمدّهما أمامي وأعبث بالوقت حاسباً أصابعهما وكأني أجهل عددها، استرخاء تام وجنون مبدع فاض عليّ وانهمر. سأعُد شيئاً آخر عدا أصابع قدمي، ربّما سأحاول أن أحصي كم رمشة تحدث في الثانية؟ لا. لا أظنها فكرة سديدة. بل سأستكشف الموجود قربي. مسحتُ تضاريس الصالة باحثاً عن إغراء يعلق بفضولي. لم أهتم إلا إلى سكون موحش يعتليني، لم يعق هدوئي شيء إلا ذاك الكرسي القابع أمامي، لا أدري من أين انبثق فجأة من جدار الوحدة. فارغ كفراغي، فارغ كفراغ البيت بأسره. بل إنّه بفراغ الحياة المهولة بأكملها. هناك رجل وامرأة يديران ظهريهما للكرسي ويمشيان بمنأى عنه من دون اكتراث. يا ترى، كيف يتأتى لهما أن يتركا هكذا، شاغراً من دون الجلوس عليه وشغله؟ ذاك الكرسي يحرق وحدتي ويشعلها من رماد الرغبة، إنّه يمن عليّ بغواية المشاطرة، إذا جلستُ عليه سأشغله ويشغلني لا محالة. أمامه برج كبير، ومن الخلف، هناك بحيرة ذات هوة تشعل رغبة الاندفاع غرقاً لمن يئس. يا لهذه الفكرة الموهوسة. هل للكرسي قدرة بعث كل هذه الأفكار؟ لا بالتأكيد، سأنشغل بمطالعة مجلة وأتعامى عن وجوده هنا من الأساس، فهذا أسلم لي. لكنه

ما يلبث أن يطوقني، وأنا أداري لهفتي في امتطاء ذاك الكرسي، مازلتُ مستغرياً كيف يمكن لمن مر من أمامه ألا يقعد عليه. وتلك البحيرة كالجمرة، حمراء تمتص بقايا شفق شمس راحلة، سآدس وجهي في مجلتي وأتغاضى عن ذاك الكرسي. لكن فراغه يرصد رغباتي ويرسم لي وجهتي المرغوبة فيه، كم هو مخزٍ أن أكون عارياً من مشاعر أتصنعها عبثاً. فجأة، ظهرت نقطتان تتركزهما بؤرة مضيئة في وسط الكرسي، ما لبثت أن تحولت إلى عينين تشبهان عينيّ ولكنهما حادثان تلمعان كعيني قطرة متسمة أمامي ترشقني شرراً، متوغلة فيّ تتلصص علي وتقلص حريتي. أصبحتُ منحسراً في رقعة ضيقة بالكاد أقوى التنفس، التقلص جاثم على حركتي، بت طبقاً شهياً يلتهمني الفزع، غدوتُ سجيناً لتلك العينين وذاك الشعور المتواطئ مع الكرسي، شعرت بأني أنزلق في الهوة السحيقة للبحيرة خلف الكرسي الفارغ. خفقان وارتعاش يلوي صوتي، أتصببُ عرقاً كما أتصببُ الذعر، أقع فريسة للسطوع الذي يخرق جسدي. هناك حرارة تنبعث من البؤرة العينية تلك، أغلقتُ عينيّ لبرهة، استجمعتُ شتات أمري من دون تماطل، تعاميتُ عن رؤية الكرسي، ولكن في الوقت ذاته حملته ثمّ ألقيتُ به خارجاً في الفناء الخلفي للبيت. استكنتُ قليلاً، أنهيتُ صراعي مع نفسي ومع كل شيء، أطبق عليّ الهدوء الآن، خلقتُ ألفة مع الكتاب وانصرفتُ بين جُمله أقرأ. غلف الاطمئنان وجهي. سمعتُ الباب يُفتح، عادتُ ابنة الخالة، ولجتُ الصالة حيث كنتُ متمدداً، رمتُ الحقيبة المدرسية وتمددتُ مثلي على الـ"صوفا" التي بجانب تناظر الحائط قبالتها، زفرت تنهيدة دعر: "أوووه، أين هي صورة القطة التي كانت مثبتة هنا؟". رددتُ عليها مندهشاً: "وهل كانت قطة؟ ابتسمت لي برضا لا ينم عن الانزعاج قائلة: "جيدٌ أنك خلعت تلك الصورة من مكانها، فهي متشبثة هناك منذ اشترينا هذا البيت، يأبى الكل أن يلمسها، ولا تروق لي بناتاً، بل تتشبح أمام ناظري كلما دخلت الصالة". وقت العشاء، جلس الجميع يتناولون الطعام، دخل زوج الخالة متسائلاً: "أين لوحة الطفلة ذات العينين الجاحظتين؟". علّقت ابنته متفاجئة: "وهل كانت طفلة؟". رد ابنه بعصبية: "إنها صورة قبيحة لخفاش أو ربّما وطواط". أجابت خالتي ضاحكة: "بل هي صورة بومة.. إني يهديكم جميعاً". وبقيتُ أنا مستمعاً، تكتسحني رغبة ملحة لإلقاء نظرة مجددة على اللوحة الملقاة في الفناء الخلفي للمنزل. *كاتبة من سلطنة عمان